أبو الحسن علي الحسني الندوي

الإمام الذي لم يوفّ حقه من الإنصاف والإعتراف

ملتزم النشر و التوزيع
المجمع الاسلامى العلمى
ندوة العلماء ، ص-ب ١١٩
لكنهؤ (الهند)

من مطبوعات المجمع الاسلامى العلمى رقم : ١١٦

الطبعة الجديدة

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا كتبت هذه السطور ؟

* * *

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و خاتم النبيين ، محمد و آله وصحبه أجمعين ، و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ! فان شهداء الاسلام و قادة الجهاد والدعوة الاسلامية ، الذين وهبوا نفوسهم وأرواحهم لله تعالى ونفضوا أيديهم من هذه الحياة و ما يتبعها ، ليسوا فى حاجة إلى أن يعترف بجهودهم من جاء بعدهم ، ويسجل المؤرخون والمؤلفون مآثرهم ، و يتغنى الشعراء و الأدباء ببطولاتهم و أمجادهم ، أو ينصب الملوك و الأمراء تذكاراً لهم ، فانهم عند الله فى دار كرامة ، و قد لقوا رباً شكوراً يجزيهم على عملهم أفضل

الجزاء ، و قد قال فى كتابه العزيز : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى و قاتلوا و قتلوا لأكفرن عنهم سيآتهم و لأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب »[1] .

و لو خير هؤلاء المخلصون بين الاشتهار و الاستتار ، و بين الظهور و الخمول ، لآثروا الثانى على الأول ، ولدعوا الله جاهدين مخلصين أن يجعل عملهم خالصاً لوجهه الكريم و أن لا يطلع عليه أحد ، وقد كان بعضهم يحزن إذا تحدث به الناس ، و يندم إذا تحدث به اضطراراً أو استطراداً كأنه أفشى سراً كان يجب كتمه ، و قد روى الامام البخارى بسنده عن أبى بردة عن أبى موسى (الأشعرى) رضى الله عنه ، قال : خرجنا مع النبى ﷺ فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه فنقبت أقدامنا ونقبت قدماى ، وسقطت أظفارى ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٥ .

وكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا ، وحدث أبو موسى بهذا ثم كره ذاك ، قال ما كنت أصنع بأن أذكره ، كأنه كره أن يكون شئ من عمله أفشاه[1] .

وما ضرهم أن لا يعرفهم الناس أو أن لا يعترف بهم الأعقاب ، أويسحب الزمان عليهم ذيل النسيان والنكران ، فقد عرفهم الذى جاهدوا فى سبيله وبذلوا له النفس والنفيس ، يعجبنى فى ذلك ماحكاه المؤرخون فى قصة « نهاوند » قالوا : « لما كانت وقعة » « نهاوند »[2] » وفتح الله على المسلمين بعد أيام شداد ، بعث أمير المسلمين إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فبشره بالفتح وأخبره بشهادة نعمان بن مقرن — قائد جيش المسلمين فى هذه الوقعة — فبكى عمر واسترجع ، قال ومن ويحك ؟ قال فلان وفلان ، حتى عد له ناساً كثيراً ، ثم قال وآخرين

---

[1] (١) الجامع الصحيح للبخارى كتاب المغازى ، باب غزوة ذات الرقاع .

[2] (٢) مدينة فى إيران كانت بها الوقعة المشهورة سنة ٢١هـ (٦٤٢م) .

ياأمير المؤمنين لا تعرفهم ، قال عمر و هو يبكى : لايضرهم أن لايعرفهم عمر و لكن الله يعرفهم[1] ».

ولكن قد تواضعت الطبائع السليمة والأذواق الصحيحة على معرفة الفضل لأهله ، و الاعتراف بالجميل و شكر من أسدى إحساناً أو دافع عن بلاد أو أمة ، و قتل دون عرضها وكرامتها ، أو دينها و عقيدتها ، و قد أطبقت الأمم التى اعتدلت فطرتها و صلح مزاجها على تخليد ذكر هؤلاء الأبطال ، اعترافاً بالجميل ، وتشجيعاً لأبناء الأمة على تقليدهم ، حتى كان « الجندى المجهول » موضع عناية الأمم الغربية و اهتمامها .

أما المؤمنون و أتباع الرسل ـ صلوات الله و سلامه عليهم ـ فحظهم من الاعتراف بالجميل و الشكر على الاحسان و النعمة أوفر من كل أمة و طائفة ، و قد وصف الله المؤمنين بالعرفان للجميل و الدعاء لمن سبق والاقرار بالتقدم و الفضل ، فقال : « و الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٣٥ .

اغفرلنا و لاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، و لا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم[1] » و وصف الكفار و أهل النار بالكنود و الجحود ونكران الجميل ، و لعن اللاحق للسابق ، و كرهه له و التبرئ منه فقال عن جهنم : « كلما دخلت أمة لعنت أختها»[2] و امتازت الأمة الاسلامية من بين الأمم برحابة الصدر ، والاعتراف بالفضل ، و إقامة الموازين القسط بين الناس ، و تخليد مآثر السلف ، و كثرة الدعاء لهم والترحيم عليهم تشهد بذلك كتب التراجم و السير التى لا يوجد لها نظير ـ فى الكمية و الكيفية ـ فى أمة أو بلاد ، و هى تشكل مكتبة من أغنى مكتبات العالم فى هذا الموضوع .

لكن رغم هذه العناية الفائقة والاحصاء الدقيق ، ورقة الشعور بالجمال و الكمال ، و القدر الوافى لنوابغ الرجال ؛ بقيت شخصيات ، إما مغمورة مطمورة لم يرفع اللثام عن

---

(١) سورة الحشر ـ ١٠

(٢) الأعراف ـ ٣٨

وجهها و لم ينفض الغبار عن مآثرها و جلائل أعمالها ، وإما مهضومة لم يوف حقها من الانصاف والاعتراف ، تحيط بها هالات من الشائعات و الأساطير ، و تمنع من دراستها من جديد و الكشف عن أغوارها و أبعادها ، أنصاف بحوث و تحقيقات ، و نصف العلم أضر لصاحبه من جهل كلى ، فذلك يعوق و هذا يشوق ، و قد كانت المعرفة الناقصة حجاباً من قديم الزمان عن التثبت و الاستيثاق ، و الدراسة الوافية الكافية .

و قد كان السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد من الأفذاذ الذين أخلصهم الله بخالصة هى الايمان و الاحتساب و ابتغاء الرضا والثواب ، وطهر قلوبهم عن الرياء والسمعة ، و هانت فى عيونهم الدنيا و مطامحها و مناصبها حتى كانت كالذباب أو كومة من تراب ، وقد روى عنه أنه قال فى مناسبة وقد أشار عليه أحد كبار التجار فى كلكته بأن يختار لسفره إلى الحجاز سفينة من السفن الشراعية كانت لها مكانة مرموقة لكثرة ما فيها من المدافع ، ولأنها من المراكب الحكومية ،

و أن ذلك يلفت إليه الأنظار و يزيد فى شرفه و انتشار صيته ، فاحمر وجهه غضباً و قال : « يا هذا ! إن العزة لله ولرسوله و للمؤمنين ، وإننا لا نعتبر ما يسميه الناس الشرف و علو المكانة ، و الشهرة فى الناس ، إلا جيفة قد انتفخت وتعفنت » وغشيت الناس المهابة وانقطعت الألسن ، و انحنت الرؤس ، و قد كان لشدة إخلاصه و كراهته للتعظم و افتتان الناس به بعد الموت ، قد دعا الله أن يعفى أثر قبره فلا يبقى له عين و لا أثر ، و هكذا كان .

إذاً فليس من حاجته أن يعترف الجيل المعاصر ، والمثقفون و الكتاب ، بمكانته فى صف المصلحين و المجاهدين و يعرفوا قيمة دعوته وجهاده وأهمية الدور الذى قام به فى النشأة الدينية الحديثة و التجديد الاسلامى الأخير ، وما كان لدعوته و جهاده من أثر عميق على عصره و بيئته و على جميع الحركات و النشاطات التى قامت فى شعبه القارة الهندية و ما جاودها من بلاد و أقطار ، و لكنه من حاجة هذا الجيل و الأجيال التى تأتى بعده ، و حاجة تاريخ الاسلام

و المسلمين الذى يجب أن يكتب بانصاف و تحقيق و أن ينزل الناس فيه منازلهم و يوفوا حقهم .

وكان كاتب هذه السطو ريرى أمانة فى عنقه منذ زمن طويل أن يعرف هذه الشخصية إلى قراء العربية و يؤدى الشهادة لله ، فقد مكنه ظروفه الخاصة من دراسة سيرته و حياته و الاطلاع على جوانب عظمته ، ظروف لم تتهيأ لكثير من زملائه و معاصريه — على فضل علمهم و علو مكانتهم — و ما شب عن الطوق إلا وتناول هذا الموضوع دراسة و كتابة و تأليفاً و ترجمة ، ومكنه الاشتغال بمطالعة تاريخ الاصلاح و التجديد و ترجمة رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ، من معرفة طبقات الرجال ودرجاتهم وخصائصهم ومكانتهم فى تاريخ الفكر الاسلامى و الجهاد الاصلاحى .

فحتم كل ذلك عليه أن يقدم إلى قراء العربية موجزاً عن جهاد هذا الامام تكون مقدمة وتمهيداً لكتاب كبير يوفق له من يكتب الله له هذه السعادة ، وما هذه الصفحات التى تطالع القراء إلا محاولة متواضعة فى هذا الاتجاه ، و لفتة

تاريخية الدارسين لهـــذا الموضوع و المؤلفين و المؤرخين ، و العاملين لمجد الاسلام و نهضته وإدالته من الجاهليات التى تداعت عليه و أحاطت به .

وصدق الله العظيم : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

٢٩/ ٣/ ١٣٩٨هـ أبو الحسن على الحسنى الندوى
١٠/ ٣/١٩٧٨م دارة الشيخ علم الله الحسنى
رائ بريلى ــ الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه ، فمنهم من قضى نحبه و منهم
من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ۝
(سورة الاحزاب :- ٢٣)

الامـــــام

الذى لم يوف حقـه من الا نصاف و الاعتراف

قاد السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد رحمـه الله (١٢٠١ - ١٢٤٦هـ) حركة إسلامية كبرى فى شبـه القارة الهنـــدية ، لم يعرف لها نظير فى الشمول و عمق التأثير ، ومشابهة الدعوة الاسلامية الأولى ، لافى قرنه الثالث عشر الهجرى ، بل فى عدة قرون ، من تاريخ الاسلام والمسلمين الأخير ، و ظل يناضل على أوسع جبهة نعرفها من إصلاح المجتمع ، و تربيـــة الرجال ، و الوعـــظ و الارشاد ، والـكفاح و الجهاد ، ولم يكن تأثيره مقصوراً على العهد الذى نشأ فيه والجيل الذى عاصره ، و المجال الذى عمل فيه ، بل

خلف أثراً عميقاً واسع المدى على الجيل الذى أعقبه ، و على دعاة الاصلاح و العاملين فى المجال الاسلامى ، الذين جاؤا بعده ، كالحركة الفرائضية فى بنغال الشرقية ، و الدعوة السلفية فى الهند ، و مركز الدعوة و التربية فى «صادق فور بتنه» و مركز تعليم الكتاب و السنة للعلماء الغزنويين فى أمرتسر ، و مدرسة ديوبند ، و ندوة العلماء فى لكنؤ ، و حركة التحرير و إجلاء الانجليز ، التى كانت قيادتها فى المرحلة الأولى بيد العلماء و القادة من جماعته ، و حركة التأليف والترجمة الواسعة النطاق فى مختلف أنحاء الهند ، التى ملأت الفجوة الواقعة بين الشعب و الثقافة الاسلامية الأصيلة ، والتعرف بالكتاب والسنة ، فكان فى كل ذلك أثر ملموس للحركة التى قام بها هؤلاء المجاهدون ، أو كانت وليدة دعوته التى هزت المشاعر ، وأشعلت المواهب ، وعلى الحركة العلمية ، و التفكير الاسلامى ، و اللغة و الأدب(١)

---

(١) قد وضع كثيرمن الفضلاء بحوثاً علمية ، والقوا محاضرات قيمة فى جامعات الهند ، و فى جامعات أوربا الشهيرة ، فى موضوع تأثير أدب الدعوة - و يعنون بها دعوة السيد أحمد الشهيد و الشيخ إسماعيل الشهيد - فى اللغة الأردية و الأساليب الأدبية فى الهند .

لأن دعوته الاصلاحية الشعبية استخدمت لغة أردو كأداة تفهيم ، و غرس للمعانى العميقة فى قلوب الدهماء و الجمهور ، فاتجهت إلى تسهيلها و تهذيبها ، و إحلالها مكان الفارسية التى كانت لغة العلم والتأليف فى زمنه ، و إبعادها عن التنميق و الصناعة اللفظية التى كان يعتمد عليها الأدباء و الشعراء ، و نشأت مكتبة ذات قيمة فى اللغة و الأدب .

إنه دعا إلى الدين الخالص[١] ، و أشعل فى القلوب شعلة الايمان ، و الحماسة الاسلامية ، والجهاد فى سبيل الله و نظم جماعة كبيرة ، و أحسن تربيتها الدينية و الحربية ، وخرج معها مهاجراً فى سبيل الله (فى ٧/ من جمادى الآخرة سنة ١٢٤١هـ) من طريق بلوجستان وأفغانستان ، إلى حدود

---

(١) الاطلاع على دعوته السافرة القوية إلى التمسك بعقيدة التوحيد القرآنية النقية و نبذ الشرك و البدع ، يرجع إلى كتابه « الصراط المستقيم » بالفارسية و كتاب « تقوية الايمان » للشيخ محمد اسماعيل الشهيد (بالأردية) و ترجمتها العربية المسماة « رسالة التوحيد » بقلم كاتب هذه السطور .

الهند الشمالية ، ليتخذها مركزاً لدعوته ، و ليتقدم منها إلى الهند لاجلاء الانجليز ، و تأسيس دولة إسلامية على منهاج الكتاب والسنة ، وإثار الغيرة الاسلامية فى نفوس المسلمين ، و أولى الأمر وقادة الرأى ، وأنذرهم بالخطر المحدق بالوجود الاسلامى ، و نبههم على نوايا « الأخطبوط » الانجليزى ، و مخططاته التوسعية ، و راسل أمراء المسلمين و غير المسلمين فى الهند ، و ملوك البلاد الاسلامية المستقلة ككابل وهرات و بخارا و غيرها ، و أرسل إليهم رسله و رسائله الرقيقة المرققة ، الدافقة بالقوة و الحماس الاسلامى ، و فراسة المؤمن الألمعى ، وعلو همة القائد العصامى ، و الامام الدينى الذى هيأه الله لهذا الأمر العظيم ، و سمت همته ، و بعد نظره ، حتى فاق فى ذلك كبار السياسين فى عصره و بعد عصره ، و ما ذلك إلا لاحياء ما مات من السنن ، واندرس من معالم الاسلام ، ولادالة الاسلام من الجاهلية والسنة من البدعة ، و إجراء الأحكام الشرعية على من دان بالاسلام ، و نطق بالشهادتين ، وليدخلوا فى السلم كافة ،

لا يشوبه غرض سياسى ، أو طموح شخصى ، أو علو فى الأرض أو فسادا[1] .

و كان هذا السفر الشاق المضنى من الهند مع جيش من المهاجرين لا يقل عن جهاد ، و لا يتغلب على صعوباته إلا الايمان القوى ، و العزم الراسخ ، و الفكرة المتغلغلة فى الأحشاء ، القاهرة للشعور بالألم و التعب ، مصداقاً لقوله تعالى : « إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » فقد اعترضت لهم فى الطريق صحارى قاحلة لا ماء فيها و لا ميرة ، و مفاوز يتلف فيها الانسان و يتيه فيها الخريت ، و عبروا ممر « بولان » مدخل أفغانستان وهو كنفق طويل فى الجبل يمتد على خمسة وخمسين ميلا ، يكتنفه جبلان يبلغ ارتفاع بعضهما إلى ٥٧٠٠ قدم ، و يبلغ المضيق بينهما فى الغالب إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ ذراع ثم ممر « كوزك » الضيق الهائل الذى هو فى جبل « التوبه »

---

(١) اقرأ مجموعة رسائله بالفارسية ، وكتابه « الصراط المستقيم » الفصل الخاص بضرورة الجهاد .

قبل قندهار .

واستقبل السيد فى « قندهار » و « غزنين » و « كابل » استقبالا ملوكياً لم يستقبل مثله عالم أو قائد أو حاكم منذ مدة طويلة ، و أقبلت عليه البلاد حكومة و شعباً إقبالا فيه الحماس الدينى والكرم الأفغانى و الآمال البعيدة ، والتبرم من الأوضاع ، و الاستشراف إلى قيادة مخلصة تنقذهم من هذا التفكك ، وعدم الثقة ، والخضوع للحكومات السلالية والعشائرية ، وتستخدم طاقاتهم التى فتحوا بها الهند مراراً لصالح الاسلام و الجهاد و الشهادة فى سبيل الله .

و واصل السير إلى « بشاور » فـ « هشت نغر » حيث تهافت عليه الناس تهافت الفراش على النور ، حتى وصل إلى « نوشهره » فى ١٨/ من جمادى الأولى سنة ١٢٤٢هـ (١٨/ديسمبر سنة ١٨٢٦م) ومن هنا أرسل إلى رنجيت سنغ كتاب إعلام بالجهاد .

وبويع بالامارة والامامة فى ١٢/ من جمادى الآخرة سنة ١٢٤٢هـ و قرئت باسمه الخطبة و دخل الناس فى بيعته

أفواجاً ، و جاءه أمراء المناطق ، و رؤساء القبائل ، و كبار العلماء فبايعوه على السمع و الطاعة و الجهاد فى سبيل الله وكتبوا إلى حكام « بشاور » يخبرونهم بذلك فاستحسنوا فعلهم و أبدوا استعدادهم للدخول فيما دخلوا فيه و أرسل السيد الامام ، و العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد ، رسائل إلى علماء الهند وأعيانها ، ورؤسائها يخبرانهم بذلك ، فاستبشروا به و أيدوه ، و بايعه الأمير يار محمد خان و الأمير سلطان محمد حاكما « بشاور » ، و أخوهما الأمير بيرمحمد خان أخيراً ، واجتمع تحت رأيته فى معركة « شيدو » نحو مائة ألف مقاتل .

وبدأ الحرب مع « السيخ » على الطريقة الاسلامية[1] مطابقا للسنة النبوية ، و قد احتلوا « بنجاب » و استولوا عليها ، وكانت لهم سيطرة على حدود الهند الشمالية الغربية والقبائل الأفغانية الحرة ، وهددوا سلامة أفغانستان ، وزحفوا إليها مراراً ، وتعرض المسلمون الذين كانوا يشكلون الأكثرية

---

(١) الدعوة إلى الاسلام أولا ، ثم الجزية ، ثم القتال ، الطريقة التى تناساها ملوك المسلمين ، و زعماؤهم منذ زمن طويل .

فى « بنجاب » و حكموها منذ القرن الخامس الهجرى ، للاهانة و الابادة ، والاضطهاد الدينى ، فكان لابد من انتصارلهم و دفاع عنهم و ذرأ الخطر عن البلاد الاسلامية الصميمة ، وكانت لبنجاب أهمية استراتيجية كبيرة ، و كانت الحرب مع « رنجيت سنغ»[1] أكبرقائد نبغ فى أواخرالقرن الثامن عشر المسيحى ، وأقوى حاكم عسكرى فى عصره ، وانتصر المجاهدون فى أكثر المعارك الحربية ، و على الجيوش التى كان يسرحها رنجيت سنغ حاكم «بنجاب»، يقود بعضها قائدان إطاليان محنكان قد قاتلا بجوار نابليون الكبير فى الحروب التى دارت بينه و بين انكلترا ، وهما الجنرال فينتورا و الجنرال الارد ، و ظهر من المجاهدين من الشجاعة و الحنين إلى الشهادة والطاعة للأمير ، والتأدب بآداب الشرع فى الحرب والسلم ، ما جدد ذكريات القرون الأولى .

---

(١) ١٧٨٠ - ١٨٣٩م وصلت مملكته إلى كابل شمالا وغرباً ، وإلى شواطىء نهر « جمنا » جنوباً وشرقاً ، اقرأ للتفصيل كتاب Ranjit Singh لمؤلفه Sir Lepel Griffin

و أسسوا فعلا دولة شرعية فى الحدود الهندية الشمالية والغربية ، تشتمل على « بشاور » و ما جاورها من البلدان والقرى ، ونفذوا الحدود الشرعية ، وطبقوا النظام الاسلامى ، المالى والادارى تطبيقاً دقيقاً ، و شهد التاريخ نموذجاً للخلافة الاسلامية الراشدية ، بعد ما توالت قرون طويلة على حكومات المسلمين شبه « العلمانية » و « الزدنية » فيما يتصل بالأحكام الشرعية ، و القوانين الاسلامية .

ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فوقع ما تكرر فى التاريخ الاسلامى من نزوة الأهواء وهجوم الجاهلية الجريحة الموتورة ، فلم يرض هذا الوضع القبائل التى تقطن هذه المنطقة لاصطدام هذا النظام بمآربها الشخصية ، و أعرافها القبلية الجاهلية ، فقام بعض أمرائها ورؤساء القبائل يقودهم سلطان محمد خان حاكم « بشاور » و هو الذى منحه السيد أحمد ما فتحه من بلاده ، بعد ما أعطى العهود و المواثيق و أقسم بالله جهد أيمانه انه سيحكم هذه البلاد بحكم الله وشريعته و يحقق ما أراده السيد من فتح هذه البلاد ، فقتلوا العاملين على الصدقات ، والمعينين

على الحسبة والقضاء . المنبثين فى المدن والقرى[1] بقسوة قل نظيرها فى تاريخ الثورات والثارات[2] ، وثبت أنها كانت مؤامرة أسهم فيها رؤساء القبائل . و من كان عليه الاعتماد وكان المفروض أنه يقوم بدور « الأنصار » نحو المهاجرين فى سبيل الله ، وقلبوا هذا النظام رأساً على عقب ، و اضطر المجاهدون إلى أن يختاروا مركزاً آخر لنشاطهم وتحقيق أهدافهم ، من إقامة الحكم الاسلامى ، والتحرك إلى الهند ، فصرفوا العنان إلى منطقة « هزارا » ووادى « كشمير » و قد وجه أمراء هذه المنطقة الدعوة إلى السيد ، و وعدوه بالنصر ، وشد الأزر .

و فى طريقهم إلى كشمير ، وقعت المعركة الحاسمة الأخيرة فى وادى « بالاكوت » مع جيش « السيخ » الذى كان يقوده الامير شير سنغ بن رنجيت سنغ ، و قد دله بعض المسلمين المأجورين إلى هذا الوادى الضيق الوعر المسالك ، و وقعت المعركة الحامية ، واستشهد الامام

---

(١) يقارب عددهم مائة و خمسين رجلا من صفوة المسلمين و لبابهم .

(٢) اقرأ فصل « بأى ذنب قتلت » فى كتاب « إذا هبت ريح الايمان » ص ١٦٨

السيد أحمد ، و صاحبه العلامة محمد إسماعيل بن عبد الغنى (ابن شيخ الاسلام عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى) و كبار أصحابهما بعد بطولات نادرة ، وشجاعة خارقة للعادة ، و ذلك فى ٢٤/من ذى القعدة ، عام ١٢٤٦هـ ، (٦ من مايو سنة ١٨٣١م)

و اتخذ خلفاء السيد و أصحابه ـ و على رأسهم الشيخ ولايت على العظيم آبادى و أخوه وأولاده ـ مركزاً لهم فى « ستهانه » المنطقة القبائلية الحرة ، و انتقلت المعركة من « السيخ » الذين ضعف شأنهم و فقدوا السلطة[1] ، إلى الانجليز الذين استولوا على الهند ، و أسسوا فيها حكومة منظمة قوية ، وقد كان هذا الانتقال ، من مقاصده الحقيقية ، والغاية القصوى التى كان يرمى إليها ، كما صرح به فى رسائله التى كتبها إلى أمراء الهند من المسلمين ، و غير المسلمين ، و ملوك الأقطار الاسلامية فى آسيا الوسطى .

---

(١) استولى الانجليز على المملكة التى أنشأها رنجيت سنغ ــ الذى حاربه السيد أحمد الشهيد ــ فى سنة ١٨٤٩م ، يعنى بعد شهادة السيد بثمانى عشرة سنة ، و انقرضت هذه الدولة انقراضاً كلياً .

و لم يزل خلفاؤه و أتباعهم فى الهند قائمين على الحق ، باذلين فى ذلك النفس و النفيس ، و الانجليز يطاردونهم و يضطهدونهم ، ويصادرون أملاكهم و أموالهم ، ويحاكمونهم محاكمات طويلة عريضة[1] . و قد حكم على بعضهم بالشنق و بالنفى المؤبد ، و على بعضهم باعتقال طويل مع أعمال شاقة[2] ، و هم صابرون محتسبون ، لا يضطربون و لايتزعزعون ، و لايلينون و لا يستكينون ، حتى كانت ثورة ١٨٥٧م ، التى تزعمها المسلمون ، وأسهم فيها المواطنون و أخفقت لأسباب يطول ذكرها ، و قوبل زعماؤها بصفة خاصة و المسلمون بصفة عامة بوحشية نادرة[3] واستتب

---

[1] اقرأ كتاب The Great Wahabi Case محاكمة قضية الوهابية الكبرى) و كتاب - W. W. Hunter « Our Indian Musalmans » - (مسلمو الهند)

[2] اقرأ فصل « امتداد تاريخ الجهاد و البطولة » و فصل « من الشنق إلى النفى » فى كتاب المؤلف « إذا هبت ريح الايمان »

[3] اقرأ كتاب المؤلف « المسلمون فى الهند » فصل الدور الذى قام به المسلمون فى تحرير الهند » .

الأمر للانجليز ، و دخلت الهند فى الحكومة البريطانية بصورة عامة .

و بقى هذا الوضع إلى ١٩٤٧م ، حين نالت الهند الاستقلال ، وكان التقسيم ، و قامت الجمهورية الهندية ، و قامت دولة باكستان المسلمة ، و هى تشتمل على أكثر المناطق التى كانت مركز نشاط المجاهدين و كفاحهم ، وكانت فى مقدمة مخطط هذه الحركة الاصلاحية الجهادية ، و هدفها الأول ، و إن كانت النسبة بعيدة ، و التفاوت عظيماً بين ما أراده السيد الامام ، ودعا إليه و جاهد فى سبيله ، وبين ما قامت له باكستان ومثلته على المسرح السياسى والادارى و الخلقى .

لشتان ما بين اليزيدين فى الوعى
يزيد سليم و الأغر ابن حاتم

كان هذا المخطط السياسى الحربى الذى اتبعه السيد الامام أفضل مخطط يتصور فى الفترة التاريخية التى وضع

فيها هذا المخطط ، وفى الوضع الدقيق المعقد الذى كان يواجهه ، لا يدرك سلامته و بعد غوره و بعد النظر الذى صدر عنه هذا المخطط ، إلا من عرف الخلفيات والتجارب التى ألجأت إلى اتخاذ هذه الخطوة . ودرس الواقع السياسى والاجتماعى و العسكرى الذى كانت تعيشه الهند فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى ، بدقة و تفصيل ، فقد أخفقت كل المحاولات التى قام بها القادة والأمراء لتخليص الهند من النفوذ الانجليزى و إقامة حكومة قوية حرة ، كان فيهم مثل القائد العصامى السلطان تيبوالشهيد ١٢١٤هـ (١٧٩٩م) فى ألمعيته وشهامته وأمير خان (م١٢٥٠هـ) فى فروسيته و شجاعته ، ومن قبلهما النواب سراج الدولة أميرمرشد آباد (م١١٧٠هـ) والنواب شجاع الدولة حاكم أوده (م١١٨٨هـ) رغم وسائلهما المتوفرة و جيوشهما الجرارة ، و ذلك لسياسة الانجليز المؤسسة على قاعدة « فرق تسد » و لعدم وجود منطقة حرة بعيدة عن النفوذ الانجليزى يمارس فيها النشاط الجهادى الخالص بطمأنينة و ثقة .

و المخططات السياسية و العسكرية توضع دائماً على التحرى للأفضل الأسلم ، و التأمل المخلص ، و استشارة أهل النصح و الاخلاص ، ويضم إلى كل ذلك - إذا كان القائد دينياً يريد وجه الله و إعلاء كلمته - كثرة الدعاء والابتهال ، و الاستخارة ثم التوكل على الله ، ولا شك أن السيد الامام قد استوفى هذه الشروط و لم يقصر فيها أى تقصير .

و لا يجوز تسليط مقاييس عصرية أو محلية على شخصية أو حركة سبقتا فى الزمان ، أو اختلفتا فى المكان ، والحكم على محاولة مخلصة جادة تفانى فيها صاحبها و وضع فيها أعز ما عنده ، بنتائج ظهرت بمشية الله تعالى و الحكمة يعلمها ، فاذا كان هذا هو الميزان الوحيد و الحاكم على الأعمال بالاخفاق و النجاح ، خسرنا أجمل ما عندنا فى التاريخ الاسلامى من جهد و جهاد وسعى و اجتهاد ، فان المعول على النية وبذل ما فى الوسع ، وتحرى الصحة والصواب ، لا على النتائج و المكاسب « من المؤمنين رجال صدقوا

ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلا » .

و من خصائص دعوته و جماعته التى تلفت النظر ، أنها كانت تجمع بين جهاد النفس و جهاد العدو ، و بين الحب لله ، و البغض لله ، وبين الزهد و العبادة ، والحمية الدينية ، و العزة الاسلامية ، و بين السيف و المصحف ، و العقل و العاطفة ، و بين التسبيح فى المسجد و البيت فى ظلام الليل ، و بين التكبير فى ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، و بين الدعوة إلى « الدين الخالص » و تصحيح العقيدة ، و التربية الاسلامية الصحيحة ، وبين تطبيق الشريعة الاسلامية و تنفيذ حدود الله ، وإقامة الحكومة على منهاج الخلافة الراشدة ، و تكوين المجتمع الاسلامى المتكامل ، و العمل بقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

و من مآثره الجليلة أنه أحيا ركن الاسلام « الجهاد فى سبيل الله » حسب تعاليم الاسلام و آدابه ، و طريقة

النبي ﷺ و أصحابه ، بعد فترة زمنية طويلة ، كاد يندرس فيها هذا الركن ، ويطوى فى صحائف السنة المطهرة ، والسيرة النبوية ، و تاريخ المجاهدين الأولين ، والغزاة المخلصين الذين كانوا يقاتلون لتكون كلمة الله هى العليا ، و ليكون الدين كله لله ، لا يبتغون به عرضاً من الحياة ، أو تشييد ملك و دولة لأسرتهم و أبنائهم ، و قد أهمله ملوك الاسلام ، أو استغلوه لقضاء مآربهم ، أو إشباع شهوة الملك والفتح ، وشغل عنه ـ أو عجز ـ دعاة الاصلاح ، والمعلمون والمربون حتى كادت الأمة الاسلامية فى مشارق الأرض و مغاربها ، تجهل قيمته وأهميته وفضله ، ومكانته فى الاسلام ، و حتى أصبح أقل أهمية من كثير من أبواب الفقه(١) داخلا فى قائمة المستحبات و العزائم الطويلة .

وقد كان ضرر هذا الاهمال على العالم الاسلامى كبيراً

---

(١) كما يقول وزير السيد وترجمانه العلامة إسماعيل بن عبد الغنى الدهلوى فى رسالة له إلى أحد علماء الهند ومشايخها : «أن الجهاد قد صار الاهتمام به عند العلماء لا يزيد على اهتمامهم بتعليم كتاب الحيض والنفاس وتعلمه»

وفادحاً ، فقد عاث فيه المفسدون ، واجترأ عليه السفلة وأراذل الناس ، وخضدت شركة الاسلام والمسلمين ، وأصبح المسلمون فى بلادهم التى فتحوها بحد السيف ، وحكموها قروناً طويلة ، فريسة القتل و التدمير ، و عرضة الاهانة و التذليل ، تهدم مساجدهم ، و تنتهك أعراضهم ، و تهدر كراماتهم ، و انطبق عليهم قول رسول الله ﷺ « و إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم[1] » و قد كان العالم الاسلامى خصوصاً ما بعد منه عن مركز الخلافة العثمانية صورة صادقة لهذا الوضع المزرى المهين .

ويكفى القارى أن يقرأ الفصل القيم فى ضرورة الجهاد فى الكتاب القيم « الصراط المستقيم » (ص٩٥ - ٩٦) (وهو من إملاء الامام السيد أحمد و إفادته) و قد جاء فيه ، و من شك فى وخامة نتيجة ترك الجهاد ، و ما عاد به على الهند من شر وضرر ، وخيم به عليه بسببه الذل والهوان فليسرح طرفه فى أطرافها عند كتابة هذه السطور فى سنة

---

(١) رواه أبو داؤد عن ابن عمر رضى الله عنهما .

١٢٣٣هـ ، وما آل إليه أمرها ، وما تردت فيه من ضعف و استكانة ، و ذل و مهانة ، و بؤس و شقاء ، و كيف نزعت عنها البركة ، و فارقها البهاء .

وقد عاش « الجهاد » بفضل جهاده فى إحياء هذا الركن العظيم ، واحتل مكانه فى حياة المسلمين ، وتفكيرهم واهتمامهم ، وفى الأدب الاسلامى ، والشعر الهندى[١] ، حتى زالت هيبة الموت ، و الجراحة فى سبيل الله ، و حنت النفوس إلى الشهادة حنين الطائر إلى وكره ، و تنافس الشبان ، و الأثرياء ، و المتنعمون فى الهجرة و الجهاد ، و ألفوا

---

(١) اقرأ القصيدة الرنانة فى فضل الجهاد لأحد أئمة الشعر الهندى فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى ، وصاحب مدرسة أدبية شعرية خاصة الأستاذ مؤمن خان الدهلوى (١٢٦٨هـ) المعروف بمزدوجة الجهاد ، و القصيدة المثيرة الحماسية للعالم الفقيه الشيخ خرم على البلهورى (١٢٧١هـ) التى كانت تقرأ امام صفوف المجاهدين عند المعركة فى معركة السيد الامام ، و قد نظم أحد أبناء أسرته هو السيد عبد الرزاق الحسنى الكلامى ، ملحمة إسلامية تشتمل على خمسة و عشرين ألف بيت فى فتوح الشام و غزوات الصحابة ، انتشرت فى الهند و كانت تقرأ فى بيوت العلماء وعامة المسلمين . و كان كل ذلك نتيجة الجو الذى ساد على الهند بعد الجهاد الذى دعا إليه وقام به ،

حياة التقشف والخشونة ، و الايثار و الفداء ، وكانت الآيات التى قيلت فى الحث عليه ، و الشوق إلى الشهادة ، ترنيمة تنوم بها الأمهات أبناءهن ، و ينشدنها فى مناسبات كثيرة .

و يليه إحياء نظام الامارة و الامامة فى الاسلام ، الركن الاسلامى الذى قدأخل به المسلمون من مدة طويلة ، فتفرقت كلمتهم ، و تمزق شملهم ، و انفرط عقد حياتهم ، و صاروا يعيشون كقطعان من الغنم ، لا راعى لها و لاحارس ، و قد سمت الشريعة الاسلامية هذا النمط من الحياة « الجاهلية » و حذرت من الحياة على هذه الحال و الموت فيها ، و أنكرت أن تمر بالمسلمين ساعة لا أميرلهم و لا إمام ، و قد سبقت هذه الجماعة إلى إحياء هذه السنة العظيمة ، والركن الاسلامى - كما سبقت إلى فضائل أخرى - حين ضيعه المسلمون فى أكثر أنحاء العالم الاسلامى ، و فى أطول مدة من تاريخهم .

و لو لم تكن للسيد الامام مأثرة غير إحيائه لهذين

الركنين ، و تحبيبهما إلى نفوس المسلمين ، و إعادة اعتبارهما و قيمتهما فى حياتهم ، لكفاه فخراً و عظمة ، فكيف ، و له مآثر جانبية أخرى ، كإحياء ركن الحج فى الهند ، الذى تعرض لحملة علمية وفقهية تحاول إسقاط فرضيته عن المسلمين فى الهند ، لحيلولة البحار و كثرة الأخطار[1] ، و سنة تزويج الأيامى الذى كان المسلمون فى الزمن الأخير يتعيرون منه ، ويعدونه سبة وعاراً ، قد يؤدى إلى مطاردة من يرتكب هذه الجريمة ، و إقصاء الزوجين و مصارمتهما ، و أصبح ذلك عرفاً فى البيوتات الشريفة ، و الأسر الكريمة ذات النسب و الحسب ، و قد ظهر ذلك فى آخر الدولة المغولية بتأثير الاختلاط بالهنادك الذين يحرمون نكاح الأيم تحريماً باتاً ، و قد ألف فى الدفاع عن هذا العرف الجاهلى وتبريره بعض كبار العلماء كتباً و رسائل .

و كذلك تزويج العوانس فى القبائل الأفغانية التى

---

(١) اقرأ عنوان « مجتمع اسلامى متجول » فى كتابنا « إذا هبت ريح الايمان » (طبع دارالقلم ص ٣٠) .

تعرض لتعطيله أو تأخيره تأخيراً عظيماً (بسبب المحافظة على الأعراف الأفغانية) لقبائح عظيمة، و منكرات شرعية و حياة غير طبعية قاسية، إلى غير ذلك من إزالة منكرات كثيرة و محو آثار الجاهلية و رواسبها، من شعائر الرفض و الحضارة الهندكية، و البدع و الانحرافات التى وقعت فى حياة المسلمين فى الهند بتأثير عناصر غير إسلامية، و ضعف علوم الكتاب و السنة.

و كذلك إقامة النظام المالى، والقضائى الاسلامى[1] و نصب الحسبة وتنفيذ الحدود الشرعية، والأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و الدعوة إلى غير ذلك من مهمات الخلافة الاسلامية الصحيحة، و سمات المجتمع الاسلامى المثالى.

---

(١) اقرأ عنوان « يدالله على الجماعة » و « تجديد النظام الشرعى » فى كتابنا « إذا هبت ريح الايمان » (طبع دار القلم).

«ولكن[1] لن يكون من المغالاة فى شئ إذا قلنا : إن أى شخصية وحركة - باستثناء رسول الانسانية محمد ﷺ - لم تكن هدف التضليل ، و الكتابة التى تتسم بعدم الشعور بالمسؤلية ، فى أوربا ، كما كانت شخصية الامام المجاهد السيد أحمد ابن عرفان الشهيد و حركته التى شرحناها آنفاً .

ولعل بعض القراء يخطر بباله أن نصيب المصلح الكبير و الداعى الشهير إلى التوحيد ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ) من معاداة الكتاب و المؤلفين و خصومه من العلماء وأشباه العلماء و افترائهم و تضليلهم ، لم يكن أقل من السيد بل كان أكثر و أعظم منه ، و لكن لا يعزبن عن البال ، أن الشيخ لم يكن هدف المؤلفين الغربيين وتجريحهم وتجنيهم مثل ما كان السيد ، لأن الأحوال السياسية لم تقتض ذلك ، و لم تقم حرب بين أتباع الشيخ

---

(١) هذا الفصل الخاص بنقد المؤلفين الغربيين من تعريب الأستاذ واضح رشيد الندوى ، لما جاء فى مقال للؤلف تقديماً لكتاب « سيد أحمد شهيد »

(Saiyid Ahmad Shaheed)

وبين قوة أجنبية استعمارية ، كما كان الشأن مع السيد وأتباعه فى الهند ، و جل ما كتب فى الرد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، و تنفير الناس عنه ، كان بالعربية و التركية و الفارسية و الأردية ، لغات المسلمين الشرقية ، أما اللغات الأوربية فمادعت الحاجة إلى استخدامها للدعاية ضده ، وسج الأساطير ، والافتراءات حوله ، ويبدو كأن الكتاب فى هذا الموضوع لم يتحملوا أى جهد ، و لم يشعروا بأى حاجة إلى دراسة مخلصة ، و مطالعة جدية فى هذا الموضوع ، أو أنهم اعتمدوا على الشائعات فقط ، أو آثروا صناعة التاريخ بدلا من كتابة التاريخ ، فكل ما كتبوه ، كان نسيج خيالهم ، أو أنهم قصدوا كتابته لأمر ما فى أنفسهم .

إن النهضة الأخيرة فى أوربا التى تسمى (Renaissance) أدت ألى حرية الفكر ، و روح البحث عن الحقيقة ، والتماس الصدق ، و تحمل الجهد فى سبيل العلم و التحقيق ، و تجنب العصبية الدينية ، و رفض الايمان بالخرافات و الثقة بكل شئ بدون التنقيب عن حقيقته و بيئته ، كانت تحمل على

الاعتقاد ، بأن الكتاب لن يكونوا بعد هذه النهضة الفكرية فريسة للعناد الدينى ، و العلمى و الفكرى . و الأغراض السياسية أثناء الكتابة على موضوع علمى و تاريخى بحت و البحث عنه ، بل إن الكتاب سيقومون بمحاولة مخلصة جادة للبحث عن الواقع ، كطالب و باحث عن الحق .

و خاصة كان يتوقع من الكتاب و رجال القلم فى المنتصف الأخير للقرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين أنهم سيتجنبون ضيق الفكر ، و يبدون تسامحاً وسعة صدر و طول أناة و يؤثرون تحقيقاً غير متحيز ، كما أبداه كتاب القرون الوسطى و مؤلفوها ، الذين عاشوا فى ظل الحروب الصليبية ، و الذين كانوا خاضعين للعواطف والأحاسيس أكثر من خضوعهم للحقائق ، و لكن عادة الدهر أن يأتى بعجائب فان حياة الانسان مركبة من التناقضات الغريبة ، و قد يضطر الانسان إلى أن يشاهد ويقبل ما لايتوقعه ، ومالاداعى له .

لم يكن السيد أحمد الشهيد شخصية أسطورية ، أو حكاية من حكايات ألف ليلة و ليلة، أو بطلا من أبطال ما قبل

التاريخ ، إنه نشأ و ترعرع و تربى فى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادى ، وكان مركز تعلمه و تربيته ، ونشأته تلك المنطقة العامرة من مناطق الهند الشمالية ، التى كانت تحتل من ناحية العلم والأدب ، و المدنية و الثقافة ، والأهمية السياسية ، المكانة الأولى ، وكانت تعرف فى الحكم الانجليزى بالولايات المتحدة لآجرا وأوده[1] (United Provinces of Agra & Oudh).

ثم قامت صلته مع الأسرة الولي اللهية الشهيرة فى دهلى ، التى طبقت الآفاق ، و ذاع صيتها فى مجال العلم و التعليم و التربية ، و خضعت لها الهند بكاملها ، و كانت أسرته أسرة الأشراف الحسنيين الشهيرة فى أوده ، و قد أنجبت هذه الأسرة خلال خمس مأة عام ماضية ، علماء ومشايخ ذاع صيتهم فى الآفاق ، و كانت تتمتع بسمعة طيبة ينظر إليها بعين التبجيل و الاكرام لشرفها ، و الزهد و الوقار ، و الغيرة الدينية ، فى سائر المناطق المجاورة ، و كانت دائماً موضع ثقة و احترام لدى ملوك دهلى المغول و اعترفوا

---

(١) وهى تعرف الآن بالولاية الشمالية (Uttar Pradesh)

بعلو نسبها و شرفها ، و تضمنت جميع الكتب الفارسية فى السير و التراجم ، تراجم أشهر رجال هذه الأسرة النبيلة و مناقبها[1] .

ثم إنه انضم إلى جيش أمير خان أحد الأمراء الأفغانيين الطامحين ، فى منطقة « سنبهل » (أترابراديش) لنيل التربية الحربية و الفروسية ، طوعياً ، و كان قد حظى خلال هذه المدة باحترام فائق ، ثم إن حياة الأمير أمير خان أيضاً وأحواله لم تكن مظلمة ، فلم تكن له أى علاقة مع البندار[2] (Pindaris) وقد ألفت عدة كتب عنه .

ولما رجع السيد إلى وطنه أمه العلماء والمشايخ والأشراف و الأمراء و بايعوه ، ولازموا صحبته بحب و احترام ،

---

(١) ليرجع إلى كتب التراجم والسير ، وخاصة كتاب « نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر » لمؤلفه العلامة السيد عبد الحى الحسنى مدير ندوة العلماء سابقاً ، (م ١٣٤١ﻫ) فى ثمانية أجزاء بالعربية ، طبع دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الهند .

(٢) طائفة من المغيرين و أهل الفروسية . ظهرت فى عهد الفوضى و اضطراب الأمن فى الهند . و كثر ذكرها فى كتابات الانجليز .

للاستفادة منه ، وللوصول إلى درجة الاحسان ، و التحلى بصفات الايمان ، و تقاطروا عليه تقاطراً لا يوجد له نظير فى الهند فى العهد الأخير ، وقام السيد بجولات واسعة متعددة للاصلاح والدعوة ، للمناطق المجاورة والبعيدة ، حيث تدفق عليه سكان هذه المناطق ، وهبت موجة من التوبة و الاصلاح ، و مكافحة الشرك والبدع ، ما شهدها التاريخ المعاصر له .

ثم توجه للحج سنة ١٢٣٦ه بصحبة سبع مأة شخص - و هو عدد ضخم بالنسبة لذلك العصر الذى قلت فيه وسائل النقل والمواصلات - بعزيمة و كرامة ، ورفاهية لايوجد نظيرها فى تاريخ ملوك الهند ، و لا فى تراجم و كتب السير للمشايخ و العلماء ، و انبعثت حياة جديدة فى المنطقة الواسعة الكثيفة العمران ، الواقعة على ضفة نهر « الكنج » (Ganges) من وطنه « رائے بريلى » إلى « كلكتا » التى كانت منتهى سفره البرى ، وساد عليها حماس جديد ، ودخلت مدن كثيرة على بكرة أبيها ، فى بيعته على التوبة والجهاد ، وانخرط الناس قاطبة فى سلك الاصلاح والتربية ، لم يشذ منهم إلا شاذ .

و وصل إلى مكة المعظمة ، والمدينة المنورة سنة ١٢٣٧ﻫ حيث قوبل بحفاوة لم تلقها شخصية دينية من أبناء بلد عجمى منذ مدة طويلة ، و كان ذلك العهد الذى كانت جماعة المصلح الشهير الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تلقى مطاردة ومحاربة من الحكومة التركية ونوابها ، و كان ذكر اسمها محرماً يسوق إلى عقاب أليم ، مثيراً للشكوك والريبة ، فلا يوجد أى دليل على لقائه مع أى زعيم من زعماء هذه الجماعة ، و قد كان ارتقاؤه الفكرى قد تم وبلغ ذروته قبل هذه الرحلة ، والدليل على ذلك أن كتابه « الصراط المستقيم » الذى لم ينسج على منواله ، قد تم تأليفه فى سنة ١٢٣٣ﻫ قبل وصوله إلى الحجاز بأربع سنوات ، و الكتاب يدل على نضج فكره و نبوغه و اقتناعه العظيم بما يقرره ويدعو إليه ، وليس اقتباس داعية أو عالم من آخر ممن سبقه فى ذلك أو فاق بعيب ، وقد جرت سنة الله بذلك ، و استمر عمل تلقيح الأفكار و الفهوم فى الغابر والحاضر ، و لكن ذلك فى قضية السيد أحمد لايؤيده التاريخ والواقع لذلك أوضحناه هنا إنصافاً للتاريخ ، وشهادة

للحق ، و كانت طريقتـه للاصلاح ، و عقيدته و دعوته التى كان القرآن و الحديث منبعها و مصدرها محددة بينة واضحـة الملامح و القسمات .

ثم بدأ السيد (سنة ١٢٤٢ﻫ (١٨٢٦م) نشاطـه للجهاد وإحياء الخلافة الاسلامية التى كانت حدودها تمتد ـ كما يتضح من خطته وفكرته ـ بين الهنـد وتركستان بل تركيـا ، وجعل مناطق القبـائل المتحررة مركزاً و معقلا لحركته ، و منطلقاً لدعوته ، وقام برحلة طويلة شاقة للوصول إلى هذا المركز مع قافلة كبيرة ، زار فيها الهند وبلوجستان وأفغانستان ، واجه فيها متاعب تقشعر من ذكرها الأبدان ، وتفاصيلها مسجلة تسجيلا دقيقاً فى رسائل وتقارير متصلة الحلقات ، ومتوفرة المعلومات لا تترك خيمة نصبها ، ولا مسافة قطعها ، و تتضمن كذلك وصف كل منطقة جغرافياً و مدنياً ، لا يتوقع أكثر منه من أى رحلة رسمية للعصر الحاضر ، ثم إنه لم يقطع صلته عن الهند من ذلك المكان ، فأقام صلته مع الهند ، و اطلع العلماء الهنود على خططه ونواياه ، وخطواته برسائل تتعلق بالدعوة

والنظام الرسمى ، لا تزال محفوظة لدى اسر كثيرة ، ومكتبات فى الهند ، و مكتبة إنديا آفس (India Office Library) فى لندن ، و كانت التقارير للعمليات العسكرية التى قام بها ، تسجل و تقيد ، حتى أثناء الحرب فى ساحة القتال .

إن الاهتمام الذى أبداه الكتاب بحياة الامام الشهيد الذى استشهد فى ٦/ من مايو ١٨٣٠م - ١٧/ من ذى القعدة ١٢٤٦ه فى « بالا كوت » وتسجيل كل حادث صغير وكبير ، له علاقة بحياته ، يتعذر أن يلاحظ فى تخليد حياة أى مصلح أو زعيم خلال القرون الأخيرة الماضية ، و يستحق أن يذكر فى هذا المجال مجهودان :

مجهود بذل بطريقة منظمة واجتماعية بأمر النواب وزير الدولة أمير إمارة تونك فور شهادة الامام حيث اجتمع لفيف من أصحاب الامام فى تونك من الذين لازموا صحبته مدة طويلة ، و شاركوا فى عمليات حربية معه و تعرفوا عليه عن كثب ، و كانوا معه ليلا ونهاراً ، فسجلوا انطباعاتهم ومعلوماتهم ، والأحداث التى شاهدوها بأم أعينهم ،

و لعله هو أول عمل مجمعى (Academic) محقق ، و هذا السجل الحافل للوقائع المخطوط يعرف ب « وقائع أحمدى » و هو فى أربعة مجلدات كبار ، و هى محفوظة فى مكتبة ندوة العلماء .

و السفر الآخر الموثوق به ، هو الذى ألفه السيد جعفر على النقوى (م١٢٨٨ه) بالفارسية باسم « منظورة السعداء فى أحوال الغزاة و الشهداء » و ينحدر مؤلف هذا السفر القيم من أسرة سادات و علماء فى مديرية « كور كهپور » السابقة ، و مهى تعرف الآن ب « بستى » و كان عالماً كبيراً و أديباً فى الفارسية ، و اشترك فى الجهاد بنفسه ، و كان أسند إليه منصب « باشكاتب » للجيش ، وفى ذلك مايضمن معرفته الدقيقة ، ومسايرته الحثيثة للاحداث ومجارى الأمور ، و يؤمن صدق تسجيله ، و كل ذلك مضافاً إلى ما ألفه رفقة الامام الشهيد ، و من أدركهم فى هذا الموضوع باللغة الأردية ، و الفارسية .

و أجمع كتاب و أكمله على الموضوع

كتاب « سيد أحمد شهيد » للكاتب الباكستانى الكبير ، و أديب الأردية المشهور ، المرحوم الأستاذ غلام رسول مهر ، رئيس تحرير صحيفة « انقلاب » فى أربعة مجلدات ضخام مجموع صفحاتها ١٩٢١ ، ويكاد يكون هذا الكتاب موسوعة فى سيرة هذا الامام ، و حركته و دعوته ، و التعريف لجماعته و كبار أصحابه ، و قد طبع فى « لاهور » و تلقى بالقبول و العناية فى الأوساط العلمية و الأدبية .

ولكاتب هذه السطور كتاب « سيرة سيد أحمد شهيد » باللغة الأردية كذلك وقد ظهر هذا الكتاب فى مجلد واحد يبلغ عدد صفحاته ٤٦٢ ، سنة ١٩٣٩م ، و قد كتب له البحاثة الاسلامى الكبير العلامة الدكتور السيد سليمان الندوى رئيس مجمع دار المصنفين (فى أعظم كره الهند) مقدمة بليغة لها مكانة فى كتاباته الأدبية ، و كان ذلك مشجعا كبيراً للمؤلف الشاب الذى كان لايزال فى الرابعة والعشرين من عمره ، و كان الكتاب باكورة مؤلفاته ، و كان الاقبال عليه عظيماً لتعطش المسلمين فى الهند إلى تاريخ وحكايات ، تبعث فيهم الثقة

والاعتزاز ، وتثير فيهم الايمان و الحنان ، لأجل الأجواء التى كانت تسود الهند فى ذلك الزمان ، ولتوقهم إلى حكم ذاتى و إنشاء قوة إسلامية سياسية ، فنفدت هذه الطبعة بسرعة غريبة و تلتها طبعات فى الهند ، و باكستان ، و المؤلف يتناوله بالزيادة و التحسين ، حتى صار الكتاب أضعاف الطبعة الأولى ، و ظهرت الطبعة الخامسة فى باكستان ١٩٧٤م و السادسة فى الهند سنة ١٩٧٨م فى مجلدين ضخمين مجموع صفحاتهما ١١٤٥ صفحة، و الكتاب مزين بعدة خرائط تاريخية ذات قيمة و صور فوتوغرافية للأماكن الأثرية و الوثائق التاريخية .

و قد صدرأخيراً كتاب « سيد أحمد شهيد » Saiyid- « Ahmad Shaheed - باللغة الانجليزية فى الأسلوب العصرى الحديث ، مؤسساً على دراسة واسعة ، و على وثائق تاريخية ، و تقارير رسمية ، و شهادات أجنبية ، لصاحبه السيد محى الدين أصدره المجمع الاسلامى العلمى فى لكنؤ ، الهند ، ويقع فى ٤٢٧ صفحة بالقطع الكبير ، و الحرف الدقيق ،

هذا عدا ما ظهر من البحوث، والرسائل العلمية، والكتب الكبيرة فى باكستان، و أوربا، وأمريكا.

و مع الأسف أن مكتبة اللغة العربية لا تزال قليلة البضاعة فى هذا الموضوع، و قد بقى العالم العربى يجهل هذه الشخصية الفذة، و الأعلام من جماعته المخلصة، و أهمية دعوته، و حركته زمناً طويلا، و لعل أول مجهود بذل فى هذا السبيل هو مقال هذا الكاتب المسهب، الذى نشره المرحوم العلامة السيد رشيد رضا فى مجلته العالمية «المنار» الغراء فى سنة ١٣٤٩هـ - ١٣٥٠هـ[1] (١٩٣١م)، واهتم بهذا المقال، فنشره رسالة مفردة أسماها ترجمة «السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد، مجدد القرن الثالث عشر»[2] ونفدت فى مدة قريبة، و كان مؤلف هذه الرسالة لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، فلم تكن فى مستوى الكتب التى تؤلف

---

(١) ظهرت الحلقة الأولى من هذه السلسلة فى مجلة «المنار» عدد ذى الحجة سنة ١٣٤٩، مايو سنة (١٩٣١م).

(٢) تقع فى أربعين صفحة، و طبعت فى مطبعة المنار بمصر.

عند النضج الفكرى و الدراسة الوافية و التجربة الواسعة .

و قد وفق الكاتب لوضع كتاب متوسط فى أسلوب قصصى شائق ، جمع فيه حكايات من تاريخ هذه الحركة الكبيرة ، وصاحبها العظيم ، تلقى الضوء على مراميه البعيدة وتأثيره العميق ، وأخلاق من صحبه وتأثر به ، مع استعراض مجمل لتاريخ هذه الدعوة ، و مراحل حياة صاحبها ، أسماه « إذا هبت ريح الايمان » صدرت منه ثلاث طبعات من لكهنؤ ، و بيروت .

و من يجهل هذه الشخصية الكبيرة المعروفة التى سجلت حياتها بهذا الاهتمام و التفصيل بأقلام أصحابها و معاصريها ومن أتى بعدهم ، من مولده إلى شهادته ، وأضيئ كل جانب من جوانب حياته اللامعة ؟ لا يجهل هذه الشخصية إلا من أغمض عينيه و طبق منافذ السمع و الفؤاد ، و صمم على أن لا يرى النور الوهاج .

إن الاصرار على إعادة أساطير وقصص ، و إشاعات كاذبة ، و التخبط فى المتاهات الفكرية ، و الحديث المرجم

بعد أن تنور كل جانب من جوانب هذه الحركة ، و سجل كل حادث من الأحداث المتصلة بها بطريق عصرى منظم ، يكشف عن تناقض للعصر الجديد ، و ضلال علمى غريب لا مبرر له .

نقدم فيما يلى بعض الأمثلة التى تلقى الضوء على هذا الموقف المضلل الذى اتخذه كثير من كتاب الغرب الذين اشتهروا بالتنقيب والبحث الدقيق على الموضوعات التاريخية ، واختاروا ذلك شعاراً لهم .

قال « هيوكس » : (Thomas Patrik Hughes) فى « قاموس الاسلام » (Dictionary of Islam) فى مقال « الوهابية » .

« ثم لما توجه رجل مضطرب قلق من الهند إلى مكة للحج للتكفير عن ذنوبه ، فقبل تأثير المبشرين الوهابيين هنالك الذين فى كانوا ينشرون دعوتهم الوهابية سرياً فى الحجاج ، عاد اللص ، و قاطع الطريق السيد أحمد الذى ينحدر أصله من « رائے بریلی » بعد تأدية مراسم الحج فى مكة عام ١٨٢٢م بعزم إعادة الهند الشمالية بكاملها إلى راية الاسلام » .

وقال « أولف كيرو » (Olaf Caroe) فى مقاله (The Pathan) « الأفغان » صفحة ٣٠١ :

« كان السيد أحمد متبعاً لأمير خان الذليل فى زمانه ، و الذى كان حشد قوات مرتزقة فى وسط الهند خلال عمليات الانجليز ضد « البندار » وبعد أن تشتت جيش أمير خان فقد السيد أحمد وظيفته » .

ويقول (P.Hardy) فى مقال « المسلمون فى الهند البريطانية » (The Muslims of British India) ص ٥١ .

« ولد السيد أحمد فى أسرة غريبة ، لعلها كانت مكونة من أفراد يعيشون على وظائف عادية ، و قضى حياة بين ١٨٠٩ - ١٨١٨م كجندى فى جيش الأمير خان البندارى ، الذى صار فيما بعد أمير تونك ، و لعله لم يكن يتميز بشئ خلال هذه المدة عن غيره من اللصوص البندار » .

ويقول هنتر « W.W. Hunter » الذى كان مؤظفاً مدنياً مسؤلا مدة طويلة فى الهند فى كتاب « المسلمون الهنود » (Our Indian Musalmans) ص ٦٠ - ٦١ .

« طرد السيد أحمد بتهمة كونه وهابياً بذلة و إهانة من مكة ».

و قال فى صفحة ٢٤ :

« و هكذا وصل إلى « بومباى » فى العام التالى متستراً فى ملابس الحاج ليكتم حياته التى قضاها كقاطع طريق » .

هذه هى بعض النماذج النادرة لكتاب التاريخ المتحضرين و الباحثين « المحققين » ، التى تنم عن الكتابة بدون مسؤلية و تحر ، و لم يكن ذلك يتوقع من المؤرخين للقرن العشرين الذين تتوفر لديهم تسهيلات السفر ، و فرص الحصول على معلومات دقيقة ، و البحث عن الواقع طبقاً للبادىء المقررة للتاريخ » .

ومما[1] يؤسف له أن بعض كتاب الشرق الأوسط وآسيا الذين اضطروا إلى كتابة عن الوهابية والمهدوية ، وحركة

---

(١) كانت للأستاذ نور عالم الأمينى الندوى مساعدة فى نقل هذه القطعة للمؤلف إلى العربية ، و تعريب المقتطفات التى جاءت فى الأصل .

الجهاد فى الهند ، قد حذوا حذوهم ، و قلدوهم تقليداً أعمى و اعتمدوا على هذه المصادر ، و لم يأتوا بشئ من تلقاء أنفسهم سوى نقل ما كتبه هؤلاء المؤرخون الأوربيون .

ومما يزيد فى العجب و الشكوى صنيع أولئك الكتاب العرب الذين كان يمكنهم الحصول على معلومات صحيحة عن طريق الاستفادة ـ مباشر أو غير مباشر ـ من المواد العلمية والتاريخية فى الهند ، والذين كانت تربط بينهم و بين أولى الأفكار الصحيحة و الاتجاهات السديدة من علماء الهند ، والمؤسسات والمراكز العلمية و الدينية ، صلات وثيقة ، وقد جربوا ما نسجته الأغراض السياسية و العصبية الحزبية من افتراءات و أكاذيب ، ضد المصلح الدينى العظيم فى القرن الثانى عشر الهجرى الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (م ١٢٠٦هـ) ، تراكم بها الغبار الكثيف على شخصيته و أعماله ، و قد احتجوا فعلا ضد هذا الموقف ، وانتقدوه و نددوا به .

و إليك قطعة كنموذج من كتاب « الشيخ محمد بن

عبد الوهاب »[١] .

« كذلك غزت الدعوة بعض المقاطعات الهندية بواسطة أحد الحجاج الهنود وهو السيد أحمد ، وقد كان هذا الرجل من أمراء الهند و ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن اعتنق الاسلام[٢] ، سنة ١٨١٦م ، فلما التقى بالوهابيين فى مكة اقتنع بصحة ما يدعون إليه ، و أصبح من دعاة المذهب الذين تملكهم الايمان ، و سيطرت عليهم العقيدة »[٣] إلخ .

إنها فى الواقع نتيجة مؤلمة و مؤسفة للتطفل على مائدة

---

(١) تأليف العلامة أحمد بن حجر بن محمد آل ابو طامى بن علي قاضى المحكمة الشرعية بقطر ، و قد قدم له و صححه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الباز وقامت بطبعه و نشره المملكة العربية السعودية ، فى مطبعتها الحكومية بمكة المكرمة عام ١٣٩٥ﻫ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) لم يتنبه المؤلف و هو يكتب بقلمه كلمة « السيد » أن الرجل كان مسلماً قد ورث الاسلام كابراً عن كابر فما معنى اعتناقه - ياترى - للاسلام بعد ؟

(٣) ص ٧٨ - ٧٩ ، واقرأ أيضاً ص ١٩ من الكتاب ، فقد مضى المؤلف يتحدث عن السيد أحمد رحمه الله و حركته على نفس هذا الغرار .

الكتاب الأوربيين ، و الثقة الكاملة بكل ما يقولون و يكتبون ، و عدم السعي وراء البحث و التنقيب عن الحق بطريق مباشر ، و قد وقع فريسة هذه السطحية ، والتقليد الأعمى الدكتور أحمد أمين[1] الكاتب و الأديب المصرى المشهور ، صاحب سلسلة « فجرالاسلام » و «ضحى الاسلام » الشهيرة ، وبعض الكتاب العرب الآخرين ، الذين اقتصروا فى استنادهم على المراجع الانجليزية ، و الفرنسية فحسب ، و اعتمدوا عليها كلياً .

يدل على ذلك ما قاله الدكتور أحمد أمين فى كتابه « زعماء الاصلاح فى العصر الحديث » فى ترجمة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله ، و قد جاء فيه :

« و قام فى الهند زعيم وهابى اسمه السيد أحمد ، حج سنة ١٨٢٢م ، هناك آمن بالمذهب الوهابى ، وعاد إلى بلاده ، فنشر هذه الدعوة فى « بنجاب » و أنشأ بها شبه دولة وهابية و أخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند ، و أقام حربا

---

[1] اقرأ كتابه « المهدية و المهديون » .

عواناً على البدع و الخرافات ، و هاجم الوعاظ و رجال الدين هناك و أعلن الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه و يقبل دعوته ، وإن الهند دار حرب ، ولقيت الحكومة الانجليزية متاعب كثيرة شاقة من أتباعه ، حتى استطاعت إخضاعهم[1] »

ولعل عدد الأخطاء التاريخية إذا لم نقل - المغالطات - فى هذه القطعة الصغيرة لا يقل عن عدد السطور التى اشتملت عليها ، و هى من الوضوح بمكان لا تحتاج فيه إلى نفى و مناقشة ، يعرف ذلك بداهة من كان له إلمام قليل بسيرة هذا الامام ، و تاريخ دعوته وجهاده ، ومن كان له اطلاع عابر على تاريخ الهند فى هذه الفترة الزمنية ، و ما ذلك إلا لأن معلوماته مستعارة أو مستقاة من مصدر إنجليزى ، عول عليه كلياً ، ولم ير حاجة إلى أن يدرس سيرة الرجل ، و تاريخ دعوته وجهاده ، دراسة وافية أصيلة ، أو يذاكر فى هذا الموضوع ، من له خبرة به من رجال الهند ، و العلماء الذين كانوا يزورون مصر بين حين وآخر ، و لو فعل ذلك

---

(١) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، ص ٢١ .

لوضعه فى طليعة «زعماء الاصلاح فى العصر الحديث» بدل سيد أحمد خان صاحب حركة التعليم العصرى الغربى فى الهند ، والسيد أمير على صاحب كتاب (Spirit of Islam) «روح الاسلام» و قد نبهت الدكتور على ذلك شخصياً فى بعض لقاءاتى معه فى مصر ، فى يناير سنة ١٩٥١م ، و قد جرى الحديث عن كتابه المذكور ، و نبهته على مكانة الامام السيد أحمد الشهيد والعلامة إسماعيل الشهيد وعلى الأخطاء التى صدرت من قلمه فى ترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حين تحدث عن الشيخ أحمد الشهيد ، فاعترف أن معلوماته عنهما غير وافية ، و أنه لم يعرف مكانتهما الحقيقية فى تاريخ الفكر الاسلامى و التأثير على حياة المسلمين فى الهند[١] .

وأمثال هذه الكتابات للكتاب العرب المسلمين ، تجعل الانسان ينشد قول الشاعر العربى :

و ظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

---

(١) راجع كتاب «مذكرات سائح فى الشرق العربى» ص ٣٧ «ملاحظاتى عن كتابه «زعماء الاصلاح فى العصر الحديث» .

و لا أدل على عظمة المرء وجلالة شأنه ، و مكانته الحقيقية ، من شهادات أولى الرأى و الفكر من معاصريه ، فإليك نبذاً من شهاداتهم فى هذا المقال الموجز : .

يقول أحد الكتاب و المؤرخين الهنود ، الذى طبق صيته الشرق والغرب ، و هو المؤلف الكبير النواب السيد صديق حسن خان (أمير بهوپال م١٣٠٧ﻫ) ، ذلك الذى شهد بأم عينيه تأثير تعليم السيد و تربيته ، و عاشر طائفة من أولئك الأفراد الذين تربوا فى مدرسته مباشرة ، وذلك فى كتابه « تقصار جيود الأحرار » :

« إنه كان آية من آيات الله فى هداية عباده ، وإصلاح حالهم ، و الرجوع بهم ، إلى الله وعبادته ، بلغ خلق كثير ، و عالم بأسره إلى درجة الربانية « و الاحسان » بتعليمه و تربيته ، و تزكيته القلبية و الجسمية ، و تطهرت الهند من أدناس الشرك و البدع و الخرافات و الأوهام ، بفعل مواعظ أصحابه و خلفائه ، و اهتدت إلى جادة الكتاب والسنة ولا تزال مواعظه وتعاليمه تفعل فعلها ، وتؤتى أكلها » .

و يضيف قائلا :

« و قصارى القول : إننا لانعلم رجلا يدانيه فى جلالة شأنه و فضله ، فى أى جزء من اجزاء العالم المعاصر ، وما جناه الخلق من المنافع الايمانية ، والمكاسب الروحية ، من هذه الجماعة الحقة ، لم ينالوا عشر أعشاره من العلماء و المشائخ المعاصرين الآخرين » .

ويقول علامة عصره ، و أستاذ أساتذة عهده ، الشيخ حيدر على الرامبورى الطونكى ، (م١٢٧٣ﻫ) أحد تلاميذ الامام الشيخ عبد العزيز بن ولى الله الدهلوى فى رسالته ، « صيانة الناس عن وسوسة الخناس » :

« أشرق نور إصلاحه وتربيته ، كأشعة الشمس بكل قوة ودفعة على البلاد ، وفى قلوب العباد ، و جعل يتقاطر عليه من الناس من كتب لهم الله السعادة فى الأزل ، و يتوبون من الشرك والبدع ، التى كانو قد وقعوا فريستها ، وعاشوا فيها كعامة الناس فى عصرهم ، فتمسكوا بأهداب التوحيد و الكتاب والسنة و قام خلفاؤه ، و أتباعه المؤمنون

بجولات واسعة فى البلدان و القرى ، و هدوا مآت الألوف من الناس إلى منهج الشريعة المحمدية - على صاحبها الصلاة و السلام - فمن حالفهم التوفيق الالهى ، و كانوا سعداء أخذوا يسيرون على هذا الدرب القويم ، و بث أتباعه فى جميع النواحى حتى يواصلوا القيام بالتربية و الارشاد ، و تلقين التوبة ، و الذين كانوا يكرهون الصلاة و الصيام ، ويتعاطون الحشيش ، و كان الخمر و الأشربة المحرمة قوام حياتهم ، و يصدعون على رؤس المحافل و المجالس ، - سخرية و استهزاءاً - بأن الصلاة لم تأمر بها الشركة الهندية الشرقية الحاكمة فى الهند ، و أن الصيام لم يفرضه مجلس (حكومى) فضلا عن الزكاة و الحج ، و كانت الرشوة و الزنا ، و إيذاء عباد الله ، و الربا ، شغلهم الشاغل ، و قد عم الاختلاط فيما بين الرجل والمرأة دون نكاح شرعى ، كالبهائم والأنعام مما كثر به أولاد الزنا ، وكان هنالك مآت فى الشباب والشيوخ لم يختتنوا كاليهود والنصارى ، فتاب هؤلاء وأولئك كلهم ، بفضل تعليم السيد وتربيته ، عن ذنوبهم ، و استغفروا الله ،

و تناكحوا ، و اختتنوا ، و عادوا إلى حياة الطهر والصفاء ، و العفة و الحياء ، وحسنت توبتهم ، وصاروا أتقياء يخافون الله ، و كان يبايعه فى وقت واحد عشرة آلاف من الناس ، و قد اعتنق الاسلام بفضل جهوده الاصلاحية والتربوية ، كثير من الهنادك ، و الشيعة : و من يمارسون « يوگ » (الرياضات الهندكية) ، و صدقوا فى إسلامهم ، و أخلصوا فى إيمانهم ، حتى حضره سريا بعض النصارى ، و أسلموا على يديه ، دون أن يشعروا بذلك قومهم ، و أقبل آلاف العلماء - بعد ما تخرجوا عليه فى التربية و الاحسان - على إصلاح الخلق ، فمنهم من اتخذ الارشاد و الاصلاح ، و التربية و التزكية ، شعاره ودثاره و منهم من انقطع كلياً إلى وضع الكتب الدينية ، وتفسير الآيات القرآنية ، وشرح الأحاديث النبوية ، و ألفوا و صنفوا ، ونشروا كتباً ورسائل فى لغتهم الأم ، ترغب الناس فى العبادة ، و ترهبهم من المعاصى ، و بذلك جعلوا كثيراً من الجهلاء — الذين كانوا لا يستطيعون أن يتلفظوا بكلمة الاسلام صحيحة - علماء يعرفون

الدين والاسلام ، ومنهم من سلكوا الطريقين معا[1] » (يعنى عنوا بالتعليم إلى جانب التأليف و التصنيف) .

ويقول أحد العلماء فى أوائل هذا القرن ، الذين لهم خبرة واسعة بأحوال الهند و أخبارها ، و هو الشيخ عبد الأحد : « أسلم على يدى السيد أحمد رحمه الله أكثر من أربعين ألف هندوكى ، وغير هندوكى من الكفار ، وبايعه ثلاثة ملايين من المسلمين ، ولو وضعنا فى الاعتبار سلسلة البيعة والارشاد التى لا تزال متصلة الحلقات ، وتجرى حتى اليوم على أرض الله ، عن طريق أتباعه ، و أتباع أتباعه ، ليكون قد دخل فى بيعته ملايين الملايين من الناس[2] » .

ويقول العالم الربانى الشهير ، المجاهد فى سبيل الله الشيخ ولايت على العظيم آبادى رحمه الله (م ١٢٦٩هـ) .

« ما إن دوت دعوته فى الهند ، إلا وجعل الناس يترامون عليه ترامى الفراش على النور ، حتى كان يبايعه عشرة

---

[1] « صيانة الناس عن وسوسة الخناس » طبع ١٢٧٠هـ ، ص - ٤ - ٥ - ٦ ،

[2] «سوانح أحمدى » للشيخ محمد جعفر التهانيسرى .

آلاف نسمة فى يوم واحد ، و تكاثرت جماعة من الأيام و توسعت ، و انسلخ آلاف الناس عن ديا ناتهم الباطلة ، و دخلوا فى الاسلام ، و بايعه فى مدة ستة أعوام فحسب ثلاثة ملايين من المسلمين الهنود ، بالاضافة إلى نحو مأة ألف رجل بايعوه خلال رحلته للحج و الزيارة ، و الذين بايعوه كان فيهم آلاف من العلماء و الفقهاء ، و مآت من حفاظ القرآن الكريم ، ومآت من رجال الافتاء و القضاء و كثير من أولى التجربة و الحنكة الذين ساحوا و طوفوا و جربوا الحلو و المر ، مما يدل دلالة واضحة على مدى ما كان يتمتع به من حسن القبول و التأييد العجيب من الله ، فكان تنجذب إليه قلوب الناس انجذاب الحديد إلى المغناطيس ، و يبايعونه مندفعين راغبين[1] » .

و يمضى قائلا وهو يتحدث عن تأثير هذه الدعوة ، وما أحدثته من تغيرات عميقة فى الحياة و المجتمع :

---

(١) « رسالة الدعوة المتضمنة للرسائل التسع » للشيخ و لايت على العظيم آبادى رحمه الله ، ص ٦٥ .

« قوة هذه الجماعة الايمانية وتأثيرها تسترعى الانتباه ، فكل من انضم إليها بالاخلاص ، و تشرف بالبيعة ، عاد من ساعته يكره الدنيا ، و يقبل إلى الآخرة ، و يخاف يوم الحساب ، و لا تزال تزداد كيفيته هذه يوماً فيوماً ، و يتخلى عن كل معانى الشرك و البدع ، و يرسخ فى قلبه العظمة و المحبة لله ، و تأخذ بمجامع قلبه معانى الاجلال والاكبار والاحترام نحو الشرع الاسلامى ، و الحنين إلى الصلاة ، و الكراهية لكل من ينحرف عن طريق الله ، و لو كان أباه أو جده ، أو ابنه و بنته ، أو تلميذه أو أستاذه ، أيا كان ، فان مخافة الله تأخذ من قلبه كل مآخذ ، فلا يبقى فيه مجال للمجاملة أو المداراة ، و كثير من الناس قد انقطعوا عن وظائفهم ، وأعرضوا عن حرفهم إذا كانت غير مباحة لدى الشريعة الاسلامية ، أوكم منهم من هجر راحته و وطنه وخرج لله لا يلوى على شئ ، وأقبل إلى الصلاة و العبادة بفضل هذه الجماعة عالم من الناس ، حتى أضحى المضللون والخرافيون يؤكدون على أتباعهم الصلاة ، مخافة أن ينفضوا

من حولهم[1] ».

وهناك عدد من الكتاب ورجال القلم الغربيين الذين اعترفوا — إلى جانب الخطأ في الفهم أو تقول الكذب عن تعمد و إرادة - بالتأثير الخالد العميق البعيد المدى لحركة السيد الاصلاحية و الجهادية ، و لتعليمه وتربيته ، وبعظمة مقاصده و أهدافه، و ضخامتها و أصالتها ، يقول الكاتب الأوربي المعاصر « اسمث » (Wilfred Cantwell Smith) الذى درس الحركات ، و المؤسسات التى ظهرت فى البلاد الاسلامية دراسة وافية فى كتابه (Islam in Modern - History -) « الاسلام فى التاريخ المعاصر » :

« إلا أن الهدف المنشود من وراء الحركة ، و قوتها النشيطة ذات الحيوية ، قد بقيت تفعل فعلها على طريقة أشمل و أبقى ، كان من الممكن أن يضغط على محاولة إجلاء الكفار ، و قد أخمدت هذه المحاولة فعلا ، و لكن كان من المستحيل أن يقضى على محاولة إحياء المجتمع الأسلامى ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦٥ .

و العود به إلى سيرته الأولى ، و ذلك يدل على مقاصده الصحيحة ، و قد ظلت فكرة قوة الاسلام فى الهند باقية فى القرن العشرين ، وظلت تسيطر على المجتمع بل وتنفخ فيه الروح و تحركه[١] » .

ويقول « هاردى » (P. Hardy) فى كتابه « المسلمون فى الهند البريطانية » (The Muslim of British India) ;

« لم يكن السيد أحمد يهدف إلى إعادة القوة إلى الأسرة المغولية الحاكمة ، أو الطبقة الأرستقراطية ، المؤلفة من الأمراء و الأشراف ، و إنما كان يرمى إلى إنشاء مجتمع إسلامى مثالى على غرار المجتمع الاسلامى الأول على حدود الهند ، إنه كان يعتقد أن المجتمع المثالى سيكسب المسلمين قوة تمكنهم من التغلب على الهند ، و إخضاعها لله فى يوم من الأيام ، و لم تلق دعوته و رسالته تجاوباً لدى الطبقة العليا ، و إنما استجابت لها الطبقة السفلى من المجتمع الاسلامى فى الهند ، و كانت هذه الطبقة ـ قبل قيام المجتمع الصناعى ـ

---

(١) Islam in Modern History طبع نيويرك ١٩٥٧م ، ص ٤٨

تضم الفلاحين الصغار ، ومثقفى المدن والقرى ، والأساتذة والمعلمين ، وبائعى الكتب ، وأصحاب التجارة و الدكاكين ، و الموظفين الرسميين الذين يشغلون وظائف عادية ، و أولى الصناعات و الحرف[1] » .

و كان لهذه الجماعة ودعاتها ، و المشرفين على نشاطها نظام دقيق ، عميق الجذور ، واسع النطاق ، قد شمل المناطق الشرقية من الهند ، و كانت شبكة من الدعاة الدينيين ، و الجامعين للعشر و الصدقات ، والمجندين للتطوعة للجهاد ، و مربيهم تربية عسكرية ، لم يطلع على تفاصيلها أحد إلا و ملكته الدهشة و الاستغراب ، يقول ألد أعداء هذه الجماعة و الحركة وليم هنتر (W.W. Hunter) فى كتابه « المسلمون الهنود » :

« كان يواصل هؤلاء جهودهم دون ملل و سآمة مثل الارساليات المسيحية ، و كانوا مخلصين متجردين عن الأغراض وكان أسلوب حياتهم فوق كل شبهة ، وكانوا يحملون مهارة على

---

(١) « المسلمون فى الهند البريطانية » طبع بكمبروج ١٩٧٢م ، ص ٥٤ .

إرسال المعونات المالية ، و المتطوعين (إلى مركز المجاهدين) وكان هدفهم أولا وآخراً هو إصلاح الدين وتزكية النفوس » .

« ولا يسعنى أن أتحدث عنهم من غير شعور بالعظمة و الاحترام نحوهم ، كان أكثرهم يبدؤون حياتهم كشباب أتقياء نزيهين مستعدين ، و يظلون مدة حياتهم على حالهم فى التفانى فى الدين و حماسهم للعقيدة — قد عهدت إلى حد تجربتى أن المبشرين « الوهابيين »[1] أعمق إخلاصاً وإحساناً ، و أقل غرضاً ذاتياً » .

و يتحدث رئيس الشرطة الانجليزى فى مقاطعة بنغال عن انتشار هذه الجماعة و سلوكها :

« يبلغ عدد أتباع كل مبشر من مبشرى هذه الجماعة ثمانين ألف نسمة ، و يعيشون فيما بينهم بمساواة كاملة ، كل منهم يرى حاجة أخيه حاجته الشخصية ، و لا يصد أحداً منهم عذر ما عن مساعدة أخيه كلما ألمت به ملمة [2]»

---

(١) هكذا اعتاد الغربيون أن يسموا هذه الجماعة ، ومن نحا نحوهم من الكتاب .

(٢) « المسلمون الهنود » لوليم هنتر ، الرسالة ١٠٠ ، ١٣ / مايو ١٨٤٣ م .

« واكتسحت الثورة جميع مديريات بنغال الشرقية ، و الفلاحون المسلمون عبر طريق الكنج فيما بين « بتنه » والبحر يرسلون دعمهم المالى أسبوعياً إلى مركز « الثوار » .

أما ما أثارته هذه الحركة و الدعوة من روح الجهاد و التضحية ، و الفداء ، فلا يوجد نظيره فى شبه القارة الهندية ، فى الحاضر و الغابر ، يقول هنتر :

« قد ذكر لى أحد الانجليز وهو صاحب مصنع كبير فى « الولايات المتحدة لآجرا و أوده » أن المتدينين من عمال مصنعه المسلمين يقتطعون جزءاً من مرتباتهم لمعسكر « ستهانه[1] ، أما المتحمسون منهم فهم يقومون بالرحلة إلى « ستهانه » من حين لآخر و يقومون بالخدمة فان كان العمال الهنادك يطلبون المسامحة لممارسة تقاليدهم الدينية لدى موت آبائهم وأجدادهم ، فان المسلمين كانوا يطلبون الاجازة لعدة شهور لكى يساهموا فى أداء فريضة الجهاد مع « المجاهدين » و لا يدرى أى أب وهابى متى ينسل ابنه

---

(١) مركز المجاهدين فى الحدود الشمالية الغربية الحرة بعد شهادة الامام السيد أحمد .

المتحمس فى الدين من بيته للجهاد ».

ويقول المستر جيمس أوكينلى (James Okinealy).

« و لم يكن ضعاف القلوب من مسلمى بنغال، أقل من الأفغانيين فى الضراوة و الحماسة للجهاد ».

أما بعد! فقد آن الأوان لتقييم هذا الامام الكبير الذى لا ينبغ إلا فى قرون متطاولة تقييما صحيحاً، و تحديد مكانته بدقة و أمانة فى تاريخ الاصلاح و التجديد، و فى تاريخ الفكر الاسلامى و البطولة الاسلامية، فقد أزيح الستار عن جوانب عظمته[1]، و أهدافه و مراميه، و مخططاته الاصلاحية والجهادية، وعن سمو همته، و بعد نظره، و ألمعيته فى الزمن الأخير.

و من فهم هذا الدين و أساغه فى إطار قوله تعالى:

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة،

---

(١) أحسن ما كتب فى هذا الموضوع وما يلق ضوءا على ذالك، ولو باشارة وكناية، كتاب « منصب الامامة »، الفذ، للعلامة محمد اسماعيل الشهيد، بالفارسية.

و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[1] . »

و الذي تجلت عليه آفاق هذا الدين الواسعة و أعماقه الغائرة ، و أبعاده المترامية ، بين عقيدة وعبادة ، وأخلاق و سلوك ، و تزكية و تربية ، و صلة عميقة وثيقة بالله ، و ربانية قرآنية نبوية ، وسياسة قوية عادلة راشدية ،[2] و فهم الاسلام في صورته الأولى الأصيلة التي مثلها صحابة الرسول ، وتابعوهم باحسان ، (لا في صورته المجزأة الممزقة التي انقسمت بين الظاهر و الباطن ، و الجسم و الروح ، و الدين و السياسة ، و لا في الصورة المشوهة التي كانت انعكاساً للفلسفات الغربية ، و التفكير الغربي . و ردفعل من حيث لا يشعر به صاحبها) أنصف هذه الشخصية و أعجب بها ، وأحلها مكانها اللائق بنوابغ الاسلام وأعلام التاريخ الاسلامي .

وإنما كانت سيرة هذا الرجل وفهمه للاسلام ونهوضه

---

(۱) آل عمران : ١٦٤ .

(٢) نسبة إلى الخلفاء الراشدين .

لاعادته إلى دعوته الأولى ، و قوته الأولى ، نابعـا من دراسة القرآن العميقـة . و إشعاعاً من السيرة النبوية ، وحبه العميق لها و لصاحبها ، وقد امتزج كل ذلك بلحمه و دمه ، وسرى فى عروقـه و جسمه ، ثم كانت تهيئة من الله وتربية منه لشدة حاجة المجتمع الاسلامى المعاصر إلى مصلح كبـير ينفخ فيه روحاً جديدة ، و حياة جديدة ، و لصدق نيتـه ، وصفـاء طويتـه ، و تجرده عن الأغراض و حب العلو و الطموح ، و كثرة دعائه و ابتهاله إلى الله ، فهو لا يقاس على القادة القوميين والزعماء السياسيين ، ومؤسسى الحكومات و الدول ، و منشئ الجماعات و الحركات .

ومن تذوق « النهج النبوى المحمدى » فى الأخذ والرد و الاستحسان و الاستهجان ، و الأخلاق و العادات ، والعبادة والدعاء ، و السياسة و الحكم ، النهج الذى نستطيع أن نسميه المزاج النبوى ، أو الطبيعة التى يطبع عليها الأنبياء فيعرف ما يجيش فى صدورهم ، وما يقلق بالهم ، و يؤرقهم فى الليل ، و يشغلهم فى النهار ، ويفجر ينابيع قلوبهم ، و يجرى

السبيل من عيونهم ، ويلهمهم الحكمة و فصل الخطاب . ويهدى بهم كبار الضلال و المعاندين ، فمن تذوق هذا الذوق ، ملك المفتاح الذى يفتح به هذا الكنز ، و يتعرف به على هذه الشخصية الفريدة ، التى أغلقت على كثير من القراء ، و أبهمت على كثير من الباحثين ، الذين سيطر عليهم التفكير المادى الروتينى ، و خضعوا للمقاييس و المفاهيم ، و المثل العصرية .

« و الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .